الحمادون الثلاثة

للدكتور جواد علي

— ٣ —

ونتنقل بك أيها القارىء من حياة حماد الراوية وقد سقت لك بعض أخباره إلى حياة حماد آخر هو « حماد عجرد » وهو يفوق المرحوم صاحبنا عبثاً وزندقة ، ولست أقصد من وراء هذا الحديث رواية أخبار الزنادقة ، وإحياء ذكرى الزندقة ، وفي عصرنا من يفوق من ذكرنا عبثاً واستهتاراً وزندقة وتفاخراً بالخروج على أنظمة البلد والمجتمع . ولكننا نقصد من وراء هذه الدراسة إظهار صورة من صور حياة الناس في ذلك العهد غامضة على كثير من القراء ، ترينا لوناً من ألوان الحياة وفوضوية من تلك الفوضويات التي قوضت دعائم المجتمع العربي القديم .

وحماد عجرد الذي أريد أن أتحدث عنه هو أبو عمرو وقيل أبو يحيى حماد بن عمر بن يونس بن كليب الكوفي وقيل الواسطي(١) . وبعد فلا تغرنك هذه الأسماء وهذا النسب الطويل العريض وتلك النسبة العربية التي تتحدث في الظاهر عن عربية أصيلة وفي الواقع غير ذلك . ولست بمبيح لك سراً إن قلت لك إن الرجل كصاحبه مولى من الموالي ، من موالي سوادة بن عامر ابن صعصعة . شأن أكثر الماجنين والمجان الذين ظهروا في هذا الوقت خاصة وقت تدهور السياسة العربية وتولي الملوك المترفين من بني أمية مقاليد الحكم في الإسلام . وفي بلد وإن كانت العروبة غالبة عليه غير أن العجمة كانت تبذر مفاسدها فيه وتؤسس نواديها في كل مكان .

لقد كان حماد عجرد على الرغم مما اتهم به من الزندقة سليط اللسان بذيء الكلام لا يقف أمامه في هذا الفن أحد . وقد عرف بشار بن برد وهو من المتهمين بالزندقة كذلك بأنه من أبذأ الناس لساناً وأنه من الهجائين المقذعين في هجائهم . وكان مسرفاً في الهجاء حتى مجل بنهاية نفسه . ومع هذا الهجاء لم يتمكن من التغلب على حماد ولا من إسكاته وقطع أنفاسه فكانت بينهما أهاج شديدة وكانت بينهما سباب وشتائم فقال حماد في بشار أهاج فاحشة جاء فيها بمعان غريبة وإقذاع فاق حد الوصف حتى كان بشار يضج منه(١) .

روى الصباح الكوفي قال دخلت على بشار بالبصرة فقال لي : يا أبا علي ، أما إني قد أوجعت صاحبكم وبلغت منه ، يعني حماد عجرد . فقلت بماذا يا أبا معاذ ؟ فقال بقولي فيه :

يا ابن نهيا رأس على تقيل ... واحتمال الرأسين خطب جليل
فادع غيري إلى عبادة ربـ ... ـبين فإني بواحد مشغول

فقلت لي أدعه في عماء . ثم قلت له قد بلغ حمادا هذا الشعر وهو يرويه على خلاف هذا . قال ماذا يقول ؟ قلت يقول :

فادع غيري إلى عبادة ربـ ... ـبين فإني عن واحد مشغول

فلما سمعه أطرق وقال أحسن والله ابن الفاعلة ؛ ثم قال إنني لا أحتشمك فلا تنشد أحداً هذين البيتين . وكان إذا سئل عنهما بعد ذلك قال ما هما لي(٢) .

واشتد الهجاء بين الشاعرين فكان بشار يهجو حمادا وهو في البصرة وكان حماد يرد عليه أو ينظم ما هو شر منه وهو في الكوفة . فكان من جملة ما قاله حماد في بشار .

والله ما الخنزير في نتنه ... يربعه في النتن أو خمسه
بل ريحه أطيب من ريحه ... ومسه ألين من مسه
ووجهه أحسن من وجهه ... ونفسه أفضل من نفسه
وعوده أكرم من عوده ... وجنسه أكرم من جنسه

ولما سمع بشار هذه الأبيات تظاهر بعدم الاكتراث وقال : ويلي على الزنديق ! لقد نفث بما في صدره . فقيل له وكيف ذاك ؟ فأجاب ما أراد الزنديق إلا قول الله تعالى « لقد خلق الإنسان في أحسن تقويم » فأخرج الجحود بها مخرج هجائي(٣) . وهو قول منهم في منهم .

قال الرواة وهذا خبث من بشار وتغال شديد . وهو خبث حقاً والتفات فطن ، فيه سرعة خاطر ، يتقطر غيظاً وحقداً من

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٠٧ .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٠٧ .
(٢) الأمالي المرتضى ص ٩٣ .
(٣) الأمالي للشريف المرتضى ص ٩٢ .

الشاعر الأعمى على ذلك الخصم الذى يراه ولا يتمكن بشار رؤيته فيصفه :

قال الشريف المرتضى وأول من جعل نفى الإلحاد تأكيداً ف به وأخرج ذلك مخرج المبالغة ، مساور الوراق فى حماد حيث قال :

، مانى وديصانا وعصبتهم جاءوا إليك لما قلناك زنديق
العبادة والتوحيد مذ خلقا وذا التزندق نير مح مخاريق(١)

ومساور الوراق صاحب هذه الأبيات شاعر رقيق ماكر من ائين وله فى الهجاء مكانة . وكان ممن يخشى لسانه . وهو ل فى أهل الرأى والقياس :

من الدين قبل اليوم فى سعة حتى بلينا بأصحاب المقاييس
من السوق إذ قامت مكاسبهم
فاستعملوا الرأى بعد الجهد والبوس
غريب فاسموا الاعطاء لهم وفى الموالى من شح علاميس(٢)

كان موجماً فى هجائه . ويمتاز عن أقرانه الشعراء بسعة ثقافته لاعه على الكتب بحكم مهنته ولذلك كان يخشى المثقفون هجاءه وا يسترضونه بالدراهم ويشترون مدحه بالمال .

وكان ظريفاً صاحب مجلس ومعشر محدثاً يدل ما تبقى من ، على خفة روحه ، له قصيدة جميلة فى وصف الطعام يصف نواع الأطعمة والأصناف الفاخرة من الأشربة ، من أوائلها :

بنعتى للملوك ولا ترى فيما سمعت كعيت الأحيـاء
ملوك لهم طعام طيب يستأثرون به على الفقراء
نعت لذيذ عيشى كله والعيش ليس لذيذه بسواء(٣)

ومن الهجاء الذى قاله بشار فى حماد عجرد وهو يمثل بخل و وبعده عن الكرم قوله :

حتفه فى الحى أغلق بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين
لأبى يحيى متى تبلغ العلا وفى كل معروف عليك يمين

وهنا لك أبيات أخرى قيل إنها فى هجاء حماد عجرد وقيل فى هجاء حماد بن الزبرقان وهو رجل من هذه القصيلة . وقيل بها فى هجاء حماد الراوية وهى :

(١) الأمالى للمرتضى ص ٩٣ .
(٢) العقد الفريد جـ ٦ ص ١٥٤ .
(٣) العقد الفريد جـ ٨ ص ٩ .

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ويقيم وقت صلاته حماد(١)
هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد(٢)

وكانت لحماد عجرد بطانة وجماعة تراح إليه وتراح إليها وهى على شاكلته بالطبع ، مثل حريث بن عمر وكان حماد ينزل عليه وكان من المشهورين بالزندقة(٣) . ومثل مطيع بن إياس وهو علم بالزندقة لايحتاج إلى تعريف ، ومثل يحيى بن زياد . وكانوا يجتمعون ويتنادمون ويتنابزون بالألقاب . حدث على بن الجهم فقال : « قدم علينا فى أيام المهدى هؤلاء القوم حماد عجرد ومطيع بن إياس الكنانى ويحيى بن زياد فنزلوا بالقرب منا فكانوا لا يطاقون خبثاً ومجانة(٤) » .

وكانت محجة القوم فى الكوفة بيت رجل يقال له « ابن رامين » قدم من الحجاز ولعله كان من أصل يهودى ، وكان صاحب قيان ونبيذ « فكان من يسمع الغناء ويشرب النبيذ يأتونه ويقيمون عنده مثل يحيى بن زياد الحارثى وشراعة بن الزند بوذ ومطيع ابن إياس وعبدالله بن العباس الفتون وعون العبادى الجيرى ومحمد بن الأشعث الزهرى المغنى وكان نازلا فى بنى أسد فى جيران إسماعيل بن عماد فكان إسماعيل يغشاه ويشرب عنده ، ثم انتقل من جواره إلى بنى عائذ فكان إسماعيل يزوره هناك على مشقة البعد ما بينهما . وكان لابن رامين جوار يقال لهن سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وكن من أحسن الناس غناء(٥) » .

وقد اشتهر أهل الحجاز بالميل إلى الغناء وباتقانهم فنونه ، ولذلك كان مجلس « ابن رامين » من مجالس طلاب الغناء المشهورة فى الكوفة . وكان عامة من يقصده من أصحاب الفن يحسنون الغناء وقول الشعر أو روايته على الأقل . وكان إسماعيل بن عماد مثلا صاحب شعر رقيق جميل وحس مرهف يقول الشعر فى « ابن رامين » وفى صاحبات ابن رامين وفى شعره نغم موسيقى . وأما محمد بن الأشعث الزهرى وهو من رواد هذا المحل ومن

(١) فى بعض الروايات « يعرف قدره » .
(٢) ابن قتيبة الشعر والشعراء ص ٣٠٢ .
(٣) الأغانى جـ ١١ ص ٢٩٠ .
(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٠٧ .
(٥) الأغانى جـ ١١ ص ٢٦٤ .